خُدعَة مُميتة

قصة بقلم فالح الطويل

اتخذت مقعدا في مقهى على تصالب شارعين يدب المارة فوقهما كالنمل . يصطدمون احيانا فيتبادلون الاعتذارات ، وتطل من وجوههم ابتسامات شاحبة كابتسامات التماثيل الالية في واجهات المعارض، ويقف هنا وهناك بعضهم يتحدثون ، ويشيرون بايديهم اشارات مبهمة : ربما يروون قصة مثيرة ، او يبررون خطأ ، ثم ينفصلون : مخلوقات بلا اسماء بطاقات مسحت حروف اعلاناتها رمال وامطار ، وجففتها الشمس ، اطفال صغار يقذفون قطعة من التنك بارجلهم مستعملينها ككرة قدم ، وقبل ان تتوضع في عرض الشارع تتلقفهاارجل اخرى تخرج فجأة من مكان ما ، سيارة تميس ، وتطلق فجأة صفارة ثاقبة تنسل كمسمار عبر الغفلة الهادئة .

لا احب المقاهي ، انها كهوف تعمرها ارواح شريرة صاخبة ، ولكني في ذلك المساء وجدتني اندفع فجأة نحو ذلك الصخب ، بينما كنت اهيم على الرصيف تضخم في اعماقي شعور كريه كأفعى تزدرد عصفورا ، جعلني اكره البيت الذي احببته من قبل ، وتمثل لعيني سجنا يفوح بروائح القمامات ، والعرق المالح ، والخدر البليد ، فتحت الباب فازكمتني روائح الثوم ، وتلبدت الكتب في امكنتها على غير انتظام ، فأسرعت اقفل القبر الموحش ، واعود تحملني قدماي الكليلتان الى غير ما هدف . وعندما مررت بالمقهى ابتسم لي الندل ودعاني للجلوس ،غير اني اخذت كرسيا وتهالكت فوقه بعيدا في الزاوية ، مستشعرا في مفاصلي كللا مرهقا ، وفي عيني تعبا كالسياط يحرق باطن اجفاني . وجدت لذة غريبة بالجلوس في ذلك المكان ، وشغلت بعض الوقت بملاحقة اختلاجات مترددة ترتفع مائلة نحو السحب البنفسجية حيث تختفي عند حفافيها القرمزية . وانتشرت في كل مكان اشعة ناعمة شاحبة كريش الحمائمالبرية ، تلامس وجهي وتشيع في برودة منعشة .

ولكني بدأت احس بمخلوقات ضعيفة جبيسة في اعماق الذاكرة ترتفع في اضطراب واهن وتنفر في مكان ما من اعماقي ، جاهدة لترى النور ، كالاعشاب الغارقة في ادغال مظلمة ، عالم كامل يطويه هذا الجسم، يغلق عليه ويرهصه في دأبه المتوحش للاستمرار ، ماأعجب الانسان وما احطه ! يرتفع فجأة الى عالم رقيق حنون حيث يصغي بانسجام سعيد الى الحياة الغنية متساميا فوق حبائل الايام ، ثم يسقط ، في غمرة النشوة ، هابطا وراء اثقال من الحديد الى الاعماق الاسنة سقوطا مميتا يجاهد الا يرض انفاسه ويربكه . لم استطع الصمود . حاولت التشبث بالناس وبالاطفال وبالسيارات ، رجوت ريش الحمائم المتطاير ان يضغط على وجهي ، وعبثا حاولت . ارتدت عني الاشياء ، وأحسست بتلك المخلوقات الصغيرة تبكي ، تجهش في البكاء ، وبتشويه يصيب عيونها فتفقأ ويسيل منها دم اسود كلعاب الصراصير ، ثم تتشنج مميلة اعناقا ضعيفة وتهمد ، يرهصها الشارع وتجففها الشمس .

أحسست بلوعة تمرس قلبي احساس من يرى اخا وحيدا له يموت امام عينيه بكل قسوة الاقدار ، لم استطع الوقوف رغم ان رغبة هائلة في مغادرة المكان قد استحوذت علي . والغريب انني في تلك اللحظة قد احسست بسعادة نشوانة يائسة ، سعادة غريق يندفع الى قلب المياه المتوحشة عندما يقطع الامل بالنجاة ، سعادة التمزق المخدرة التي تستشعر اللذة الفائقة بالالم الشديد . ووجدتني ، على غير وعي مني ، افتح ورقة خضراء ، « انا على فراش الموت ، احس به يقترب . أيد خفية كأبر تخز اطراف قدمي وجبهتي ، اليس هذاهو الموت ؟ واتذكرك بجانبي تبكي . آه ياعزيزي ، ماأسعد المشهد ! تبكي علي ! ذلك خليق بان يكثف سعادة الف حياة في لحظة . وما الذي يهمني بعدها ان اموت ! زوجي يدخل احيانا ويبقى مدة طويلة ، يجفف الدموع العالقة بأهدابه بمنديل يحمله في يده ، لو كنت حاضرا فلن تستعمل المنديل ، اليس كذلك ؟ قد لاأراك لاعرف رأيك ، ولكني سعيدة اذ ارى الدموع تقفز فجأة من بين الاهداب ، وتنحدر سريعة ، وتتبعثر على سريري ، المنديل يؤلمني ، وكلمات التشجيع التي يتلفظ بها اعرفها . ولو كنت حاضرا لما تفوهت بكلمة ، انها تميت الالم ، الكلمات ، تخرجه من براءته، كالمنديل الاصفر الذي يحمله زوجي ، الممرضة المسكينة ، التي تكتب هذه الكلمات اليك ، فطنت الى قصدي : رأيته يطل من عينيها ، وتراجعت الدموع السابحة في عينيها ، وتكورت في الزوايا ، اننا لانستطيع ان نبكي حين يطلب الينا ذلك ، البكاء الشديد ياتي من حبنا للجمال ، والزوج لايرى في زوجته جمالا لانه يعتاد عليه ، والممرضة يهمها الجسد فما شانها بالروح ؟! لاتلمني ان كنت قاسية على ممرضتي ، انني احتاج اليك ، ولو ان ذلك يعد خيانة زوجية هي ، بعرفهم ، افظع من القسوة على ممرضة ، احتاج اليك ، الفكرة تمنحني رضى . سأموت خلال ثلاثة ايام . فهمت هذا من ممرضتي ، قالت لي بعد ان الححت عليها . انها تحبني ، شكرا لها ، ولكن ذلك يمنحني عزاء قليلا . عند الموت نتعلق بالماضي كثيرا لانه اغنى من لحظة او ايام في مستشفى على فراش الموت ، وانت ماضي . ولو تزوجتك لتجمد ذلك الماضي ، أحببت انابقيك حلما يلون اطراف واقعي فهل يميع الليل الالوان ؟ تعال ، انني ابكي لكي اراك ، تعال ـ راويه . »

خلت لحظة قراتها للمرة الاولى ان العالم يتخلخل من اساسه ، واهتزت امام عيني تلك الصور الخصيبه كرفوف من عصافير الدوري هاجمت أكبادها الصغيرة سموم ، فانتفضت ، ولوت اعناقها ، وفهقهت ثم ماتت وراوية كممثلين في مسرحية تأخذهم ادوار عاطفية في دورانها المفتعل ، ثم لاتلبث بعد لحظه ان تعود كلماتملتصقة في صحائفها . نظرة موضوعية بحته . وثارت في نفسي تساؤلات : اية امرأة هي راوية؟ ماهو ذاك الذي يربض في اعماقها ؟ فتاة قيدها حرمان تاريخي فباتت يستعبدها الجسد، والشهوات الفائرة. تزوجت فلم يشفها الزواج وعادت الى احلامها تبني قصورا رشيدية مليئة بالخصيان ، امل المرأة في ان ترتعش ارتعاشات الجسد في تيار ممزق عميق متصل ليل نهار . ذلك الحب . تلك الكلمة الشمولية التي لم تعد تدل على شيء سوى الرغبة الضبابية في التمزق السادي الخالد تحت ستار الركود في حياة كل يوم . أي جمال تصبو اليه امرأة على فراش الموت تنتشي بصقيعه ! الالم الحاد النافذ الى ظلام الروح الاسفة المحزونة ؟ اية سعادة في ان يموت الاخرون ، احبابها ؟ اي جوع غريب يمرس اعماقنا فتتعلق بسماء مليئة بالنعم وراء عالم المحسوس ؟ أي اعتداء خشن يدفعنا الى الغيب، الى اللذة حتى ما بعد موت الحس ؟ « انني مثلك يا راوية ، يا حبيبتي، ولكنني لم استطع الزواج ، فرضيت بالاحلام بالم التعلق بالفراغ الازرق. قرأت الكثير في الكتب ، وكلما تمزق حجاب عن عالم المخلوقات الحبيسة خلقت حجابا اخر لكي أمزقه بيدي ، عالم من الابعاد القصية المظلمة ذرفت النور على اوكاره ، ولكن الدم تدفق من شراييني ، واحسست به يملأ فمي ، ويتدفق من انفي واذني ، وقد شغلت بالالم ، اما انك تموتين ! »

انكفأت على ذاتي في شبه ذهول غير مصدق انني محكوم الى الابد في زنزانة قدرة معتمة . ها انها تموت واموت في وجدانها ، ادفن الى الابد ، ولا استطيع تفجير الدمع من مقلتي ، لوحات فنية لم يبق على امكنتها من الجدران غير مستطيلات يشكل الغبار المتطاير من كل مكان اطرها . في زاوية شارع اناس يكادون يختفون رافعي الرؤوس ، واخرون يتقاطرون في صف لاينتهي : بعضهم تطل منهم اقدام ذات احدية لامعة كأنما هم يلتفتون الى الوراء يجذبهم هتاف غير مسموع يتدفق من عيونهم فرحا ، وحماسا يشدهم الى البنايات الشاهقة ،والسماء الصافية ، وانت تسيرين رافعة الرأس يتطاير حول جيدك المتورد منديل حريري احمر غامق متدفق بالحياة الثره ، وتتكيء اهدابك الطويلة السوداء كظلال هازجة فوق عينين معبرتين عميقتين ، وتمتد يدك الناعمة فتلامس ظاهر كفي في حنان رقيق ، اختلاجات نور سماوي ، تموجات فرح تقفز من عينيك . في زاوية شارع ، كأنما يدعوك احدهم من اقاصي الدنيا ، فيثيرني قلق وادعوك ، ولكنك تهربين الى المجهول فوق كعبك العالي ، صوت واحد يدعونا ، ولم اتعرف اليه ، ربما كان توأمنا. ومرة اخرى ، بينما كنت اقف على شرفة البريد بين جمع غفير من الناس : اطفال ، ونساء نظيفات ، ورجال تورمت سلاميات اصابعهم واخرون ملتمعة وجوههم ، هدر من شارع اخر صوت عملاق اطلت رؤوسه العديدة واذرعه ، وارتفعت اصواته الى السماء ، وقفت انظر الى الكتل الصاخبة ، وأحسست بنفسي تستطيل فتحيط بتلك الالاف. تردد في اعماقي ذات الصوت الثاقب غلائل الفضاء المرنة . ارتجت شوارع اخرى تحت وقع خطى مماثلة وشق السماوات في كل ارض صوت يتلوى كلحن دفاق يتجاوز الحواجز البشرية ، ويختلط في نداء انساني نحو الخلاص ، يرتفع ويتردد صداه عند محاور الكواكب السيارة ، جموع متراصة تتقدم بخطى هائجة ، ترتفع ايديها الى فوق ، عيونها بحار تلون سطوحها الشفافة انوار ليست من هذه الارض . وتوقفت الجموع فجاة في العالم كله ، ورأيتك رافعة احدى يديك ، واحدى قدميك على وشك ان تخطو ، وفمك الصغير ذو الشفتين المكتنزتين متسع بصراخ الانسان نحو الحياة الثرة ، ولوحت بيدي اليك فانطلقت الي عادت الجموع الى هياجها ، وبينما كنا نشبك اليدين ونندس بين الجماهير ، كانت شعوب اخرى تتحد وتتزاوج في افريقيا الصاحية على فجر جميل ، في امريكا ، وفي اواسط اسيا . ومن اعماق المحيطات تناضل الاسماك في زعيقها المخنوق لكي تترانص في ظلال السفن البنفسجية . صرختنا صرخه المخلوقات جميعها ، وقد كان اعتراف رائع من عينيك الاملتين يطل على اعماقي السعيدة ، فنتسلق على حبال النور الى عالم الالتماع الابدي . انواع من الجمال ، وصور ترتسم في خاطري على خلفية واسعة تمتد في تطاولها وشمولها لتضم الكون ، وتوحي باسراره الشفافة ، غير انني رأيت فيها عزوفا ، كانت وحيدة ، فعاشت في وجداني ثم نهزت الى عالم اخر . وقنطت ، وعدت الى وحدتي اغير الوان تلك اللوحات ،واعيد تشكيلها كأولئك الاطفال الذين ما ان يفرغوا من تزيين عرائسهم حتى يعودوا فيجردونها كيما يخلقوا عرائس اخرى اكثر بهاء ، واشد روعا وانسجاما .

عبثت ، في امسياتي ، بعالمي السحري مستشعرا في الوحدة رونق التوافق الكوني ، نبي يشكل في صمته ، عالما تسوده المحبة ، وكم كرهت ان ينتزعني من عالمي يوم بكل ماليوم من عاداته الرئيسية وشمسه اللاهبة ،يفجاني الصباح فالقي على الشمس ظلي ، واعلق فوق الحياة لوحاتي البهيجة التي اخلقها في هداة الليل المخشخشة ، ارصعها بالقرنفل ، والاقحوان ، واثريها بروح مادة تفسل شواطيء الايام المكدودة، وبارتجافات اشعة نشوانة تشعل رؤوس الاشجار وتغرق السماء في برك بيضاء ، وكم فتحت ازقة على المجهول يعبرها اناس على طرق هوائية تخترق كل رجا . ومن الاضرحة كانت تهب وجوه متفضنة ،وعيون تلمتع بخفوت عبر اروقة العصور ، ثم تهمد من جديد مثيرة في اعماق الارض ادعيات مسيح ، وصلوات رهبان موجهة الى سيد الاشياء ، كان ذلك يثيرني ، فاشكر لعينيها بركاتها ، ولشفتيها المشوقتين تمتماتها المليئة بحب يحرك يدي ، ويديرني في نشوة تتسلل من عيني الى اعماق نفسي وترطب جبهتي فاحس بقدرة على اختراق اليأس الرصاصي العيون .

اما ان تفجاني رسالتها الفاحة بديدان الموت ! أي عالم عابث كنت انيش في زواياه ! مصير يقفر فاها كفمم ، يتمطى منه شيطان . رعب القبر ، وطعم التراب يفجر رأسي ، ويلوث فمي . نبي ، ياراوية ، تقتلين، اما الزوج المسكين فقد اذهلته الفكرة ، وأي زوج لايكفكف دموعه ؟ وما الذي ادراك انه لاينتحب كالنساء ، وتأبى رجولته عليه فيتماسك مؤملا ان يرتد المصير الى غمده الفضي ؟ امانا فويل لي من اليأس الذي يدق يافوخي بصناجاته الوحشية ، الكلل يعتريني ، واحس ببرد صقيعي يميت الدفء في فخذي وقدمي ، انني اعيش في قرية معزولة بين الجبال ، فهل استطيع ان اقطع المسافات الطويلة في ايام ثلاثة ؟ انني اتعلق بأمل غامض ، حبيبتي راوية جميلة ، فهلا يتغلب جمالها على الموت ! غير انني رأيت الظلام يندلح في موجات متلاحقة من شلالات السواد الوحشي ويلتهم الغروب الشفقي شيئا فشيئا ، واحسست بفراغ صحراوي تترسب رماله المتماوجة في وجداني ، وتراص العالم المادي حول عيني ، وشعرت بنفسي يختنق في بحة تفتت كبدي .

وضع الندل كأس شراب دموي احمر على طاولتي ، وتمتم بضع عبارات ترحيب فقد معناها لكثرة ما رددها ، ثم مضى تاركا اياي الى وحدتي الجافة . دسست الرسالة في جيبي ، وعدت احدق تحديقا ابله في المساء الليلكي المفتعل بالوانه الداكنة . وعاد العالم يرهص الذاكرة . مفاصلي يهاجمها الكلل المرهق ذاته ، وينعقد في حاجبي تعب يسمم الدماء في عروقي . واحسست بطعم مر صديدي ينمجع ككتل القطن في حلقي ومر امامي اثنان ، همس الاول شيئا في اذن الثاني، فاستغرق هذا في ضحك هستيري خلته تشفيا في مأساتي ، الحقيران ، حاولت ان اشيح ببصري عنهما بعناد ، وفي ذات اللحظة خطر لي خاطر مدهش فشع غيوم الكآبة في نفسي، وددت لو كان اكيدا . اذن لتقدمت الى ذلك الذي يضحك وصفعته على وجهه اربعة كفوف صارعة ، ولكمته اكمة اخيرة على انفه يتفجر الدم اثرها ويعلم انه مخطيء وقذر . ماذا لو انها كذبت علي تلك الراوية الملهمة ؟ تلك الكليوباترا الفاتنة . تموت في ثلاثة ايام ! أي تحديد للاقدار غافل ابله ! أي لعب الموت محوره الاخير ! وامتدت يدي على غير ارادة مني ، كحيوان يعمل من تلقاء ذاته ، الى الغلاف ، وقرأت العنوان ، دمشق ـ المستشفى الوطني ـ الممرضة هدى السواح ، وبغريزة جدي وليد يتجنب الموت سقوطا من حافة بيت مرتفع حاولت ان اخلق تكذيبا لذلك الزعم المميت ، هدى صديقتها بدون ريب ووساطتها الامينة للافلات من عيون الرقباء .

عاد المساء باختلاجات ريشه يضغط بوجل على وجهي ، ويشيع في

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش

انتعاشا غير واثق يمتزج فيه الخوف بالامل والانكار البهيج باليأس الكافر، طلبت ورقة وغلافا من الندل ، وشربت الكأس الارجواني باضطراب شديد لم يركض الندل فغلى دمي في رأسي وكدت اصرخ لولا ان تذكرت فجأة البرقية ، وقد منحني ذلك شغلا يخفف من وطأة الحصر الشديد في قواي التي عادت تنبض بشدة في كل مكان من جسمي .

كان صاحب البريد قد اغلق الباب ، وسار في الشارع متوجها نحو بيته ، اسرعت اليه وقلت بارتباك راجيا ،

ـ سيد معطي ، ارجوك ، اريد ان ارسل برقية الان .

نظر الرجل الي بدهشة ، وعندما رأى اضطرابي اطرق قليلا وسرح على وجهه طيف ابتسامة خلتها ساخرة ، غير انني كنت ارتجف وقد استحكم في نفسي نفاد صبر شديد .

ـ غدا ، اراك مضطربا ، هون ...

كان الرجل يتكلم بهدوء زاجر ، فقاطعته ضابطا اعصابي

ـ لابأس عليك ، الان ، كلها دقيقتان ، وينتهي الامر

ـ ولكن الوقت متأخر ، ولن يرسلوها حتى الغد ، انتهى الدوام الان . « كان يبتسم »

ـ ابقها ، اذا اردت حتى الغد ، ولكن دعني انتهي منها الان .

ماأروع هذا السيد ! انسان دمث ، خجول ، يضع نفسه بتواضع في خدمة الاخرين كالبريد نفسه مكرسا لكي يوصل العالم البعيد بعضه ببعض في وحدة لاتنفصم ، هز رأسه باستسلام من يتقبل حماقات الاخرين على انها تخصهم وحدهم . « الناس احرار » . هكذا سمعته يقول دائما وقد وسع هذا المبدأ حتى بات لديه الدين والاخلاق وقواعد السلوك.

اخرج القفل من كلابه ، وقذف الباب الزنكي الى الاعلى فالتف حول محوره محدثا صوتا عجيبا كخوار حيوان خرافي اصيب بطعنة في رجله فانكمش بذلك الصراخ الهائل ، ولجت الباب فقابلتني نسمة متفضنة منعشة ، وكتبت على ورقة قدمها الي ، « حبيبتي راوية ، لاتموتي ، سأموت ان فعلت ، ان كنت كاذبة فاطماني . انت انت نسغ حياتي، وأملي الاخير في جفافي . » قدمت البرقية اليه ففحك بلطف وهو يتفحصها . ثم قال دون ان ينظر الي .

ـ اكتب العنوان .

كتبت العنوان ، ثم شكرته واستدرت للخروج ، غير ان الرجل استغرق ضاحكا بكل وقاحة هذه المرة ، يضحك على مرأى الموت !!واحسست بتفاهة شديدة تلفه ، عندما التفت اليه كان يضرب الطاولة بيده مهتاجا من شدة السرور الذي لا معنى له . سألته بحنق .

ـ مالك ؟

ـ لا شيء .

قالها في شبه ضحكة مخنوقة ترجه من اعماقه ، شعرت برغبة ملحة في اغلاق فمه ، ولكني عدت ادراجي وخرجت وفي نفسي تتردد الكلمات « كذبة يا حبيبتي راوية ، كاذبة انت . » وعلى بعد امتار كانت تواجهني بوجهها العذب وعينيها المعبرتين العميقتين ، هرعت الى البيت استلقي على السرير واجتر سعادة أحسستها ترفع رأسها وئيدا في وجداني ..

قابلني السيد معطي صباح اليوم ، ففحك ضحكة كانت فيما خيل الى استطالة لضحك لم ينقطع ، ابتسمت له فقال :

ـ لم تعطني فلوسا مساء البارحة .

دفعت له ماطلب ، وقد أحسست بالحياة تشتعل في نفسي من جديد ، كشجرة حور تغمس رأسها في بحر من النور ، وفي طريقي الى المكتب سمعت احدهم يعلق في اندفاع « انه يعيش في بيت من الملح » . جفلت ، ولكني نسيت الكلمة بعناد حازم .

الاردن — فالح الطويل

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان

او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣